

حركات وأساليب وتقنيات العنف الجسدي في مدينة تونس خلال النصف: الثاني من القرن 19 (1860-1881)

د. محمد البشير رازقي

أستاذ تاريخ مساح، المعهد العالي للعلوم الإنسانية بجندوبة، تونس

الإيميل: Rezgui.medd@gmail.com

استلام البحث: 22/05/2022 مراجعة البحث: 14/08/2022 قبول البحث: 15/08/2022

ملخص الدراسة:

تبين لنا من خلال هذا المقال التنوع الكبير للأساليب العنيفة التي وقعت في مجتمع مدينة تونس خلال النصف الثاني من القرن 19. برز لنا أولاً أهمية الوثائق الأمنية كمصدر مهم للمعلومات الأولية والصادرة من الفاعلين الاجتماعيين مباشرة. فهنا ثانياً طبيعة التوترات العديدة التي تشابكت مع الحياة اليومية في مدينة تونس قبيل حدث مهم وهو انتصاب حماية الفرنسية بتونس (1881)، وهي ممارسة أيضاً عنيفة باعتبارها احتلالاً. نستنتج ثالثاً أن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عاشتها البلاد التونسية خلال القرن 19 أثرت على الحياة اليومية للسكان، حيث أصبح العنف الجسدي لغة أساسية وممارسة شائعة بين الناس. ونشير أخيراً إلى أهمية الشروع في العمل على مدونة كاملة للجسد في تاريخ البلاد التونسية، وقد حاولنا في هذا المقال المساهمة في جرد وتحديد طبيعة وأساليب وتقنيات العنف، وهذا مشروع قابل للتوسع والتطوير ومنفتح على النقد والتعديل.

الكلمات المفتاحية: مدينة تونس، العنف، القرن 19، الجسد.

Movements, methods and techniques of physical violence in the city of Tunis during the second half of the 19th century (1860-1881)

Abstract

Through this article, it became clear to us the great diversity of violent methods that occurred in the society of Tunis during the second half of the 19th century. First, the importance of security documents emerged as an important source of primary information emanating from social actors directly. Secondly, we understood the nature of the many tensions that intertwined with daily life in Tunis prior to the important event of the erection of the French Protectorate in Tunis (1881), a practice also violent as an occupation. Thirdly, we conclude that the economic, social and political crises that Tunisia experienced during the 19th century affected the daily life of the population, as physical violence became a basic language and a common practice among people. Finally, we point out the importance of initiating work on a complete code of the body in the history of the Tunisian country. In this article, we have tried to contribute to an inventory and identification of the nature, methods and techniques of violence, and this is a project that can be expanded and developed and is open to criticism and modification.

Keywords: Violence, 19th century, The body, Tunis

المقدمة

يراهق البحث أساسا على إشكالية أساسية وهي تبين جانب مهم من تاريخ تفاعل الجسد مع محيطه وسياقه ورهانات الفاعلين الاجتماعيين، حيث لم يُؤرّخ سابقا للحركات والتقنيات المستخدمة في العنف الجسدي. أما مواد البحث وطرائقه فقد اعتمدنا أساسا على الوثائق المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي خلال الفترة ما بين 1860 و1881، وهي أساسا تقارير أمنية لاحتوائها ممارسات عنفية عديدة.

وتبرز أهمية الدراسة في كون الاسطوغرافية التونسية والعربية عموما لم تدون وتوثق وتؤرخ للجسد كممارس أساسي للعنف، لا أسباب العنف الاجتماعية والسياسية والثقافية بل للجسد للحظة ارتكابه العنف وتقنيات ذلك، وهنا تبرز الإضافة الأساسية. وسوف نسعى خلال هذا العمل إلى تبين طرق استخدام الجسد وحركاته في ممارسة العنف الجسدي في مدينة تونس خلال النصف الثاني من القرن 19. وقد اعتمدنا على تقارير الشرطة اليومية (الضبطية) المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي. على مستوى المنهج تساعدنا الأرشيفات الأمنية على القيام بتاريخ للمجتمعات سواء على مستوى تمثلاتهم وطريقة تفكيرهم، أو على مستوى ممارساتهم اليومية (Paul Lawrence, 2000, pp.63- 82). من خلال التقارير اليومية لمجلس الضبطية بالحاضرة تونس تعرض جسد الفاعلين الاجتماعيين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر لمتظاهرات مختلفة من العنف المادي. وجسد الانسان عبر مراحل مختلفة من تاريخه كان عرضة للعنف المادي ومشاركا فيه (Frédéric Chauvaud, 2009, p.3- 15).

ويُعدّ الجسد من أهمّ حوامل الثقافة. وهو معبر مباشر عن المكانة الاجتماعية للفرد في مجتمعه. فإلى جانب كون الجسد يعتبر "حالة انسانية"، فهو أيضا المترجم الأول عن "الهيئة الاجتماعية"، أي أن الجسد وتفاصيله تساعدنا على فهم الفرد ومجتمعه (روي بوتر، 2010، ص.313).

الجسد وأشكال العنف المادي وأدواته

تعرضت أجساد الفاعلين الاجتماعيين في الحاضرة تونس إلى أنواع متعددة من العنف خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. مثل التسميم وهو من أهم طرق القتل الصامتة، فقد "اشتكى حمده...بخدمته الحاج صالح السوفي...وضع له القتل في الطعام فأكله هو ابنه، وابنه الآن في حالة العدم"، ورجل وضعت له زوجته "القتال في الطعام" (الأرشيف الوطني التونسي، الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9).

كما نجد العنف المادي الذي ينجز عنه كثير من الآلام مثل "ضربه بدوفانية إلى أن أسقطه إلى الأرض". وكسر له "ضلعين". و"ضربه على عينيه حتى سال منها الدم". و"كسرت سنة الأولى وشرمت أذن الثانية". "ضربوه على فمه أسقطوا له فكّه الأعلى". و"ضربها بعصى على جنبها". و"ضربه حتى خرج من منخره الدم". ورجل "انتفخ وجهه ورأسه من الخنق والضرب". و"قصع له اصبعه". و"ضربها بخدمي على بطنها حتى خرجت أمعاؤها ونقبت المصراة". و"عثر على انسان ميت "بلا رأس". و"ضربها على جوفها وهي حامل، فوقع بها ضرر كبير وجرت الدم". وامرأة ضربت بسلاح حاد على بطنها "...خرج بعض مصارنها والرداء الساتر لها". وضربه على عينه "فقأها له". و"خنقه إلى أن خرج لسانه". ورجل ضرب بموس على "حلقومه من الناحية اليسرى جرحا شق الجلد واللحم وبلغ العرق المعروف بالأكحل". ورجل "رأسه كله مكسر ومخه باين من تحت العظم". ونلاحظ أنّ الجسد تعرض للعنف العرضي من جراء حوادث غير مقصودة مثل امرأة سقط عليها حائط "وقع بها بعض تقطيع لحم بظهرها"، إلى جانب تعرض الانسان لحوادث الطريق خاصة بسبب الكرتونات أو الدواب. (الأرشيف الوطني التونسي، الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9).

أشكال العنف:

تتوّعت أشكال العنف المستخدمة من قبل الفاعلين الاجتماعيين من ركل ولكم وذبح وخنق وتسميم. وتمدّنا الوثائق بصفات بعض الفاعلين الاجتماعيين الذين يتّخذون العنف وسيلة أثيرة لهم للتواصل، ووصفتهم بـ "... يده خفيفه للضرب"، و"يده خفيفه والأحمقية غلبت عليه". والبنية الجسدية لبعض الأفراد تساعدهم على سهولة ممارسة العنف، ففي أحد الوثائق نجد شهادة من أحد الضحايا حيث يقول أنّه أخذ "يخبطني قدر استطاعته من غير أن يتيسّر لي المدافعة على نفسي بسبب الفرق الكبير في الجسم والقوة الموجودين بيني وبينه لضعفي أنا وغلاظته هو... نزع برنسه ووضع على الأرض ورفع فردة صباط من رجله وأخذ يضربني بها وأخذت بالفرار وهو في أثري، ولازال يخبطني إلى أن هربت بدار صباغ".

ومن المصطلحات المعبرة عن العنف نجد "ضربه" و"عاركه" و"شاجره" و"عطاه طريقه". ومن أشكال العنف المستخدمة نجد "هجم عليه وجعل أصابعه في عينه مرارا كثيرة". و"فقع له عينه". وضربه "بمرفقه... مات من سبب الضربة المذكورة". و"ضربه بكفّ وذره على الحائط وضربه بكفّ آخر ومزّق فكينته... ضربه على صدره ضربتين وسبه". والخنق. والصّغ حيث ضربه بكفّ "إلى أن جرت دموعه"، أو "ضرب طفل صغير "بكفّين على خده". والمسك من الشّعر حيث تشاجرت امرأتين "...تمكنا بها من شعرها". ومن أشكال العنف نسجل العنف الجماعي، مثل مجموعة من الرجال "تالموا" على رجل وقتلوه. والتبرّق مثل "تقل في وجه الملازم". أو "قطعوا له شلغومته". أو "شدّه من ذقنه". (الأرشيف الوطني التونسي، الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-30/ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 248 مكرّر. الملف عدد 6. عدد الوثيقة 87)

1. اللّكم:

ويُعدّ اللّكم من أهمّ تجلّيات العنف المادي، مثل "ضربني على فمّ الكبد". و"ضربه على جنبه بيده التي كان فيها شكاره بالدراهم ضربة قويّة". و ضربه على رأسه بجمع"، أو "ضربه يصتاكه". "ضربه ببونيات (جمع بونية) عديده". وضربه "ببونية" على أنفه. ومن أنواع اللكم نجد النصراني جوزاب ضرب اليهوديّة قماره "على عينها بيد منعقدة، فتورّمت". إلى جانب "البونية" و"اليد المنعقدة" نجد "الجمع" مثل ضربه "بجمع يده على كلوته حتّى غشي عليه". نجد أيضا من أنواع اللكم "السطاكة" حيث "بينما هو مار بسوق القرانه إذ ضربه أحدهما على رأسه بيده يريد إطاءه بسطاكة، ووكزه الثاني بساقه على بطنه". وفي وثيقة أخرى نجد رجل مسك رجل آخر من عنقه وضربه "بسطاكة على رأسه ثمّ أعادها له ثانية فسقطت عمامته بشاشيتها...مسك يد الحاج المذكور والتواءها له من خلفه". ونجد نصراني ضرب يهودي "بطنجره" و"ثلاثة ضربات على رأسه وضربه ببونية على جنبه، وضربه بساقه بالسبابات حتّى طاح اليهودي إلى الأرض". نجد "ضربه بجمع على ظهره". ضربه "بجمع يده على فيه (أي فاه) أسقط له غالب أسنانه". ضربه "بجمع على فمه". "صار يلطمه على وجهه ويضربه بالبونية". "أخذ بخنقه ويضربه بالبونية". وضربه "بيده منعقدة على عينه اليسرى حتّى تضرّر من ذلك، وعصّه بباطن بطنه، وضربه برأسه على أسنانه". "...صاروا يضربونه بالكفّ وبالجمع ومزّقوا له ثيابه". "ضربه بجمع على رقبته حتّى غشي عليه". و"ضربه على قلبه بجمع الى أن أدهشه". و"ضربها بجمع على عينها". و"ضربها بجمع على فمها طيح لها بعض الأسنان... وصاروا يكركروا فيها". و"نصراني من رعايا الطليان ضرب شخص من أهل الإيالة "بجمع يده المعبر عنه بالبونية حتّى أوقع له دم جرى من فمه" و"ضربه بجمع على كلوته". و"ضربه بجمع يده على عاتقه". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

2. العنف المادي ومناطق الجسد الحساسة:

ومن التقنيات المستخدمة في الشجار هي استهداف المناطق الحساسة في جسد الانسان مثل "رفعه وأدخله حانوت تارزي وضرب له رأسه على عارضة الحانوت وصار يضربه ضربا قويا حتى أوقع له ترصيرض برأسه ". ومن حيل العراك نجد رجلا تشاجرا "فتمكّن به من رجله وجذبه إلى أن طاح للأرض. وتشاجر معه "قوضع...يده فوق رأس علي...وهزّه مرارا". والمرأة أم السعد السوفي حامية فرنسا وإبراهيم بن صالح الطرودي حامية فرنسا "يخمرون بدار برأس الدرب...رفعها بين يديه وأسقطها على الأرض، ثم قدم(صالح الوارقلي) وضربها بركبته إعانة منه على المرأة المذكورة...وقع لها ترصيرض بمخّ رأسها من أجل السقطة على الأرض".

ونجد مجموعة من التقنيات المستخدمة وقت الصراع، نجد مثلا "ضربه بركبته فوق فمّ المعده سقط ميتا من حينه". تمكّن عليه وضرب رأسه إلى الحائط إلى أن انسلخ وجهه". "ضربها على رأسها، فصادف رأسها على الحائط، فأصاب بأذنها مسمار". "طلب من جاره أن يسلم له موس رايمنا يقطع لها أنفها". "عضّها من خدّها". "ضربه بركبته على فم القلب فسقط من حينه الى الأرض وغشي عليه". ضربه على "فمّ قلبه، صار يتأوه". ونلاحظ أنّ أشكال العنف المادي مصاحبة عادة لتعمّد المعتدي استهداف الضحية وإلحاق أكبر ضرر به. و"ضربه بلّواي حديد على مقدم رأسه إلى أن خرج مخّه...بعد ما خنقه من رقبته خنقا قويا إلى أن مات". أو "تمكّن بالضبطي علي بن حميده من محاشمه وطاح الى الأرض وصار يجذب الى أن طاح بالضبطي وغشي عليه وخرج منه الدم". و"رفعه ورماه الى الأرض". و"تمكّن عليها من شعر رأسها وصار يضرب فيها بالطريق". و"طّيح وضربه بكفّ". و"...مسكه من ذقنه وجعل يجزّه ويضربه ويدفعه على جدران الزاوية...حتى أزال له جانب شعر من ذقنه". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

3. العضّ:

ونسجّل تواجد العضّ في العنف المادي مثل النصراني جوانينو من رعايا إيطاليا تشاجر مع النصرانية لويزه من رعايا إيطاليا من العواهر "اغتاظ عليها وعمد إلى أنفها أكله بغمه". المالطي صالبوا حامية انقلترا ضرب اليهوديّة مبيركه من العواهر "تمكّن عليها خنقها، وعضّها من أنفها قصّ لها القزوش بغمه وفرّ هاربا". "ضربها وعضّها من عينها". و"عضّه من إصبع يده اليمنى إلى أن سال دمه، وعضّه ثانيا من وجه يده إلى أن سال دمه أيضا ". و"عضّه من فمه". ضربه "فقام له وعضّه من أذنه اليمنى أزال له قدر أنمله".

4. الجلد:

ويعدّ الجلد من تمظهرات العنف المادي خاصّة عند العقاب، مثل رجل "سوقي معلّق صانعه من يده ورجله في حانوته وهو يضرب فيه". وأيضاً الدولاتلي أمر بجلد يهودي اسمه إسحاق عجّاج، فوجد الطبيب (بعد أن جلد) "مرميا على الأرض، ووجده في أعلى أفخاذه نفاخ عظيم... من كثرة العصا الذي أكله على ذلك المحلّ". ويستخدم السوط أو العصا في عمليّة الجلد. (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

5. التكتيف:

ويُعدّ "التكتيف" من أهمّ تقنيات الشجار مثل "غاروا عليه وكتّفوه"، أو كتّفوه وأرادوا ذبحه". و"التكتيف" يسهّل ممارسة العنف على الضحايا مثل "كتّفاها وفعلا بها ما يشين عرضها". وطفلة صغيرة ضربها رجلان فصار أحدهما "واثقها والآخر يضربها". و"وجد رجل ميت بسور الدبدابه مكتّف اليدين ومخنوق...معري من ملبوسه". ونلاحظ من خلال الوثائق أنّ عمليّة "التكتيف" أي التقييد من أنجع وسائل العنف المستخدمة خاصّة حين السرقة أو القتل أو الإتيصاب أو السرقة، إمراة دخلوا عليها السراق

لدارها، ووجدتها الحرس "موثوقه كتافا عنيفا من رجليها ويديها معا مقلدا (أي معلقا) كتافها بإحدى شبابيك البيت ومجروحه بإحدى يديها". ونجد أيضا يوسف بن حميده ادعى أن أخيه "العدل علي بن سعد ربطه في الحديد من غير وجه، ولم يسيبه إلا ما أخذ... 13 ريلات". أما قاسم بن حسن الشرباجي حانبه ترك وجد ميتا بيثر "مخنوقا وموثوقا من يديه إلى وراء". نلاحظ أن عمليات التقييد متعددة سواء من ناحية نوع التوثيق، أو الأشياء المستخدمة في التوثيق كالحبال مثلا. ووجد أيضا رجل مقتولا "ووجده مكتفا إلى وراء". ورجل تشاجر مع جماعة في حانة "قاما إليه ووثقاه وصارا يضربانه، وفي إثر ذلك عمد أحدهما إلى موسى وضربه به". "ضربوه وكثفوه وجزّوه على الأرض ظلما وعدوانا... تمكّن أحدهم من رجله والآخر من يده وجزّوه على الأرض، وصار وجهه يضرب فوق الأرض، ومزّقت أثوابه من شدة الجرّ على الأرض" (الضحية هو جزائري اعتدوا عليه 3 عساكر بميناء حلق الوادي). و"التوثيق يحدث كثيرا عندما يتم اغراق الضحية مثل حالة "رجل ملقى ببير... وأنه موضوعا بشاريه موثوقا بها كالمكتّف". وفي وثيقة أخرى نجد "...يذهب به للقايد...ضربه برجله وتابع القايد واقفه بعمامته حتّى مات". وقد وجدت امرأة ميتة ووجد بها "أثر الضرب والتكتيف". ووجد رجل "بعد الصاشمه مكتفا بقرب وهو عريان من حوايجيه...رجل...أخذ لباسه وكثفه وهرب". و"حصانه ونزعوا عنه سلاحه وكثفوه وذبحوه، وسبب فعلهم هذا السرقة". ونجد تقنيات أخرى في عملية التكتيف مثل أن يقيد الضحية في شيء ثابت (عمود، شجرة...)، نجد "عمدوا إليه وكثفوه بزيتونة وضربوه بالعصا إلى أن أشرف على الهلاك". أيضا وجد يهودي ميت وهو "مكتّف إلى قفاه وبه ثقب في شاكله اليسرى...مكتّف من يديه من وراء" ووجد معه مرافق "مربوطه يديه بحبل ورأسه مكسّر". ورجل وجد "مكتفا بخزمه من حلفه وهو مسلوب من حوايج لبسه". و كما وجد يهودي مقتول "مكتوف اليدين بكشطه لتالي...فإذا هو مذبح ومدقوق بخدمي...وبمحلّ الذبح تكفيف الدم بعبجين الشعير...رقبة القتل محشوة بالدقيق لكفّ الدم السائل...كثفوا يديه حول ظهره بالحبل تقريبا قويا، ثمّ قدروا على ذبحه...". ووجد رجل "مكتّف من يديه بخيط كتان قرب". وأيضا يسعى المعتدي دائما لإسقاط الضحية للأرض لكي يسهل توثيقه، نجد حرس الضبطية أرادوا القبض على رجل مخمور ويده سبولة، فلم يقدروا عليه "فعندها ضربه الضبطي عمر المذكور بحجر على رأسه فطاح إلى الأرض، فوثقه الحرس وافتكوا السبولة منه وذهبوا به". ومن التقنيات المستخدمة خاصة عند العنف الجماعي أنه يأتي شخص ويثبت الضحية ويأتي شخص ثاني ويضرب الرجل المثبت: رجل "أتاه نكوله ربّ الحانه ومسكه، وأتاه القريقي طرشون المذكور (الصانع بالحانة) وضربه بخدمي على يده". و وفي العنف الجماعي نجد مجموعة من التقنيات التي تسهل السيطرة على المعتدى عليه، مثل الحاج علي سحنون هجم عليه رجلين وبادر أحدهم "إلى التضييق على جيده" والآخر "عمد إليه بسيف ضربه به ضربة أصابت إحدى يديه". ونجد رجلان ضربوا رجل، عمد إليه الأول "خنقه وجلد به الأرض، ثمّ جذب (الرجل الثاني) سبولة من حديد وضربه بها ضربة أصابته في ذقنه...تركوه هناك وفروا". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

6. الإسقاط على الأرض:

ولاحظنا أنه من أهم طرق العنف المادي هو محاولة إسقاط الضحية للأرض بشتى الطرق للسيطرة عليه، نجد مثلا ضربه مرتين بسبولة من حديد و"أسقطه إلى الأرض رام ذبحه". وفي وثيقة أخرى نجد رجل تشاجر مع زوجته في الشارع "طّيحها إلى الأرض وأخرج السكين من تحته وضربه به الضربة الأولى والثانية والثالثة". و "تشاجر معه و"هزّه هزّة أوقعه إلى الأرض وبرك عليه" ثمّ جاء ثلاثه رجال و"هجموا الثلاثة المذكورين بالضرب والخنق والشتم". وهزّه ولطخه وضربه بخدمي فمات من حينه". و"أوجعه ضربا ولطخه وصعد على صدره وصار يضرب فيه". و "ضربه بجمع يده على عاتقه". و"تمكّن عليه من خناقه وضربه بمقص". والدفع في بئر من أهم أشكال العنف المادي، نجد حسن بن رمضان الجلاصي دفع زيدان بن إسماعيل في بئر بجبل الرصاص، وأخرج ميتا. وفي نوازل أخرى نجد " طرحه بالأرض وأخذ يضربه بالدافونية ويجزّه بشيابه خارج الدار"، أو

"طرحه بالأرض وقبض على لحيته وجزّه من جبّة...إلى خارج داره". و"ومرغده بالطبعه وضربه على حاجبه سال دمه". "صعد على صدره ويضرب فيه بيده". ونجد الرّكل مثل "ضربه برجله على معدته". والضرب بالرّأس. و"ضربه بركبته على فمّ قلبه إلى أن طاح إلى الأرض"، ثمّ بعد فترة مات. "ضربه برجله على بطنه إلى أن أدهشه". "ضربه برجله على قلبه أوقع به". و"ضربها على بطنها وهي حامل أضّر بها". "ضربه برجله على بطنه". و"ضربه برجله على أنثيه أوقع له بهما ترضريضا وزرقه". و"ضربه برجله على صدره". ضربه ب"وكّزة رجل بقفصي مجمع صدره انتفخت". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

ومن تمظهرات الإسقاط على الأرض نجد الدقّ عند الصّراع مثل حالة بشكوال الإيطالي دفع محمد بن عبد القادر العيساوي "في حفير بسور سيدي أبو منديل وتسبّب عن ذلك جرح في رأسه". و"هزّها ورماها في بير قليل الماء". و"دّزه على حجر مرصوف هناك جبر رجله". "دّزه على ساريه". "دّزه من فوق حمار حتّى طاح بالأرض". "دهمه بجمل حتّى طاح وجرح في عينه". "دهمه بحصان حتّى أنّه طاح". "جبده من برنسه". و"دّزه في الدروج حتّى داخ". "هجموا عليه ورفعوه ورموه من أحد شبابك العلوّ...إلى الأرض". امرأة تشاجرت مع زوجها وهو "بحالة سكر" ف"أدحضها من شباك بيتها سقطت منه إلى الأرض". والدّفع في الحيز العام مثل "دحمها بكتف حتّى ألمها". أو "عرض له ساقه في الطريق فبسبب ذلك سقط على وجهه". و"مار بالطريق فعزّض له رجله طيحه". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

7. الضرب بالرّأس:

ومن أكثر تقنيات الشجار شيوعا هي الضرب بالرّأس، فهذه الطريقة تساعد على مفاجئة الضحية خاصّة عندما يكون قريبا من المعتدي، نجد "ضربه برأسه على حاجبه الأيمن". و"...ضربه بروسية على رأسه". "ضربه برأس على أنفه...إلى أن سال دمه". "دمه قد سال من رأسه، لأنّ يرفع رأسه ويضرب به الأرض" (أي يضرب في نفسه). والضرب بالرّأس له تقنياته كأن يستهدف مناطق حسّاسة في رأس الخصم، "ضربه برأسه على صدغه وعلى فمه فسال دمه". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

8. الصّفع:

يُعدّ الصّفع من أهمّ تجلّيات العنف المادي، نجد رجل مكاوي تشاجر مع شيخ المكاوية و"نزل الشيخ من مكان جلوسه ولطم حسين المذكور على وجهه بالكفّ مرتين ومسكه وصار يدفع فيه حتّى أخرجه من سوق السرايرية". و"رفع النصراني يده وضربه بكفّ". "ضربه بكفّ، ثمّ بجناح قتله به". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

9. العنف الجماعي:

نلاحظ أنّ العنف الجماعي يساعد المعتدين على المناورة واستهداف الضحية بسهولة، مثل أحد حراس الضبطية أراد جماعة من النصاري الاعتداء عليه ف"أخرج فوتي من تحته وأراد المدافعة به عن نفسه، فتقدّم إليه ثلاثة منهم...فشده إثنان وافتكوا منه له الفوتي من يده، وتقدّم إليه ثالثهم وضربه بموس بيده". و"تحاموا فيه...وضربوه ومزّقوا له ثيابه". نجد أيضا العنف المادي المرتبط بقطاع الطرق وهو من أهمّ تجلّيات العنف الجماعي، وهو له أيضا تقنياته الخاصة التي تساعد قاطعي الطرق، نجد مثلا "...حامل قمح وشعير" فقتلوا حصانه أوّلا ليمنعوه من الهرب، وجزّوا الضحية لمكان بعيد عن الأعين في الجبل "مع ما معه من

النعمة وسرجه، ثم بعد حصّة قتلوه، ولم يقتلوه بسلاحه، بل بالعصيّ والحجر كحيوان مكروه". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

10. الذبح:

ويُعدّ الذبح من أهم أشكال العنف، وفي بعض الأحيان يمكن للمعتدي أن يقطع رأس الضحية تماما لإخفاء معالم الجريمة، فقد وجد محمد علي الجربي مقتولا "قرب برج الجلاز...وعنقه مقصوص". والذبح يمكن أن يسبق القتل أو يعقبه مثل حالة رجل وجد ميتا ضرب بالرصاص و"ذبح". ورجل "ذبح ثم رمي في بئر"، وجدوه ملفوف بوزره ودرياله". ورجع تشاجر مع طليقته "أناها لدارها وصدّم عليها بحديد بيده وقصّ لها أنفها وذبحها...كما عمد لنفسه وذبح رقبته (أي ضرب نفسه)". وعامة يُعدّ استخدام الأدوات الحادة عنصرا حاسما في الصراع والممارسة العنفية مثل حالة اليهودي اميشي الجزيري حماية فرنسا تشاجر مع محمد المثلوثي "فاغتاز اليهودي...فخطف عصا كانت بيد النفر الأول وكسر منها جانب وأطمسها في عينه اليسرى". ونجد في وثائقنا تمظهرات مختلفة لتقنية "الذبح"، المرأة حليلة بنت المعبري "وجودها مذبوحه بدارها بزقة سيدي زهير...وجد بها أربعة جراح بجنبها الأيمن...ووجدوا مذبوحة من الأذن إلى الأذن". ورجل تمكّن به رجلين "ذبوحه من الوريد إلى الوريد، وشقوا بطنه بالحديد، فصار ميتا من حينها". أيضا وجد رجل وزوجته ميتان "مذبوحان" "قالزوج حميده...مذبوح من قفاه من الجهة اليمنى...وذبح الزوجة...ذبح معتاد قطع الحلقوم والودجين". أيضا قتل شاب "مذبوح من مقدم رقبته". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

11. العنف وحيل القتل

ومن الآليات المترافقة مع طمس معالم الجريمة والعنف المادي نجد القتل ورمي الجثة في مكان ناء، مثل حالة إنسان عربي وجد قتيلا ملقى ملقى تحت زيتونة "بغابة شطرانه" وهو مذبوح و"الظاهر أنّه منقول لهنالك لكونهم لم يجدوا أثر جرّ تدلّ على نقله من المكان". من أهم تمظهرات العنف المادي خلال الفترة المدروسة هو رمي الجثة في بئر، ولكن نجد مجموعة من التقنيات للتعامل مع الجثة، فإن كان المعتدي يريد أن تُكتشف بسرعة فهو يتركها فوق الماء، وإن كان يريد إخفاءها تماما فهو يحاول قدر الإمكان إبقاء الجثة تحت الماء، نجد "انسان ميت ملقى ببير خارج باب الخضرا...وهو عريّ اللباس مثقل بحجر...وجدوا برقبتة خنق ومضروبا على أذنه اليسرى وقد أفسده الماء لكونه ملقى به مدة عشرة أيام أو أكثر ولم يعرفه أحد(هذا هو الهدف الأساسي من إبقاء الجثة مدة طويلة تحت الماء لكي تتحلّل ويصبح مجهول، وهو من آليات طمس معالم الجريمة)". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

12. الخنق:

نجد عدّة تقنيات في الخنق، إلى جانب تعدّد الأدوات المستخدمة، مثل "خنقه وشمته". "خنقه وسبه". "خنقه حتّى أسقطه على الأرض". "تمكّن عليه من خناقه". "شدّه من خناقه وصار يضرب فيه" "خنقه وجذبه من فوق حمار طيحه بالأرض"، و"ضربه وخنقه وألقاه بالأرض". "خنقه ودرّه". "طيحه وضربه وخنقه". "خنقه وتقل عليه". "ضربه بثلاثة كفوف". "ضربه بكفّ وطيحه على الأرض". و"ضربه وخنقه بكشطته حتّى أشرفه على العطب، وعقّس برجله على صدره". وتشاجرت امرأتين "...عمدت إليها بالضرب والخنق والتكتيف". ونجد أحد الضحايا يقول "وضع يده في قراجمي...وأراد خنقي". و"تمكّن من العساس من محرمة رقبته". و"كنّفوه وخنقوه بخيطه وسرقوا له برنسه وكشطه وشاشية". و"وضع له محرمة رقبته وخنقه". وحموده الحمامي الحنفي وجد بحانوته مقتولا "مخنوقا وكرومته مكسرة". و"جذبه من خناقه وضربه بيده على فاه إلى أن هدم له سنّتان من فاه". و"وضع... يده في عنق اليهودي...وخنقه وجذب من تحته سبوله وضربه بها، أصابته الضربة في فخذة الأيمن". نجد تقنيات

متعددة في الخنق لكي يكون فعالاً للمعتدي، نجد "مسكه من مرحمة رقبته وخنقه". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

ومن أهم أسباب المسك من العنق هو تثبيت الخصم، فقد "وثّقه من خناقه وشمته بلسانه". وفي وثيقة أخرى "وضع يده في عنقه وضربه بكفّ يده ثلاثة كرات". وطرق عليها الباب ف"خرجت إليه لتتهاه وتصلح باب دارها فمسكها من خناقها وجذبها الى خارج باب الدار ووقع لها انسلاخ بيدها". أيضا في وثيقة أخرى نجد رجل تشاجر مع آخر "تمكّن من خناقه وضربه بركبته على فمّ قلبه ودّره بيده فسقط...مغمى عليه لا يتكلّم أصلا وخرجت من فمه كشاكش" ثم مات. وأيضا "تمكّن على رجل... من كشطته ووضعها في خناقه ولازال يضرب فيه إلى أن فزعوا له الحوانب". وجد رجل ميتا، ووجد "برقبته قطعة من فوطه مخنوق بها ومذبح من مقدم رقبته". أيضا عادة ما يتمّ تقييد الضحية لكي يتمّ خنقه جيّدا، نجد: وجد رجل ميتا ببئر قرب باب الخضراء "وجدوا الرجل المذكور ميت هناك ومكتّف اليدين، وأجاب الطبيب أنّ سبب موته من الخنق". كما يتمّ اعتماد الخنق لتثبيت الضحية لكي لا يحسن التملّص، نجد "وضعوا العمائم برقابهم وصاروا يضربون فيهم ضربا بليغا أمام الناس". وفي بعض الأحيان يتمّ الخنق من الخلف لاستغلال عنصر المفاجئة، نجد رجل مارّ بزفة الغديرة بعد نصف الليل فأتى رجل آخر "عمد الأول للثاني ووضع له محرمه بركبته وخنقه بها (هنا ثبتّه أولا، ثمّ أرهقه وأتعبه بالخنق خاصّة مع عجز الضحية عن إيصال الأكسجين للجسد) ثمّ استلّ سبوله من حديد وضربه بها". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

13. التسميم:

ويُعتبر التسميم من أهمّ طرق العنف المادي، "خليفه بن محمد الدريدي سجن في شكاية مسعود الشوشان صهره، مدّعا أنّه أتى له بسكر الفأر قاصدا أكله". أيضا سجن محمد بن الحطّاب الماجري "طعم (أي سمّم) زوج أنفار طلبة بمدرسة جامع صاحب الطابع". والمرأة حليلة بنت محمد سقيسلي سجنّت "طعمت ولد...ألى أن وقع له اختبالا بعقله...تكرّر منها هذا الفعل لنفرين قبله". والحاج عون بن علي الحنفي سمّمته زوجته، حيث وضعت السمّ بالطعام، حيث قال "أصابني وجع بصدري وبطني"، وقد مات الزوج، وقد وضعت له السمّ في "صحن الكسكسي". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

14. تقنيات أخرى مختلفة للعنف:

ومن أشكال الضرب الأخرى نجد "ضربه على ظهره إلى أن أسقطه إلى الأرض". و"ضربه على رأسه إلى أن سقط على الأرض". وأيضا الضرب بالمرفق مثل "ضربه بمرفقه". و"شدّ أحدهم من لحيته". "شمته وبزّع عليه فنجال قهوة على حوايجه". و"بزّع عليه زيت". و"ضربه وخبّشه". "لوّث له وجهه بالطين". "مزّق له ثيابه وصار يكركر فيه بطريق الطويلة". و"تمكّن عليه و"مزّق له لحيته". "مزّق له شعر رأسه". الشوشان سعيد ضرب زوجته الشوشانه زينب "أوجعها ضربا، وضع يدها بين فردي الباب وصلّحه عليها، فصرخت...". و حرس الضبطية سمعوا الهرج بأحد الحوانيت، فذهبوا إليه "فشتّموا الحرس وبال أحدهم من ثقب بالباب على الحرس". و"راكب فوق بغل...جذبه الى أن طاح من البغل". "هرقت عليه من شباك علّوها طاسه خمر". "مسكها من شعر رأسها وضربها على رأسها وهي هاربة منه إلى خارج الدار...فضربها بموس حجامه". "تمكّن على إمرأتين من شعور رؤوسهنّ ويجرّ فيهنّ". وتمكّن عليه من "لحيته ولوى عنقه"، و"صار يضرب فيه ضربا قويا متتابع". "تمكّن على يدي محمد كريم العسكري...وصار يلوي فيهما ويسبّ فيهما ويتوعّده". والجزر، في أحد الوثائق نسجل "مار هو وزوجه فتمكّن على

زوجه وصار يجزّ فيها". وتفسير أحد الأعضاء مثل "كسر له يده". أو "وفصع له إصبعه آله". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

يمكن أيضا أن تتم عملية القتل ثم التمثيل بجثة الضحية، فقد وجد العسكري أحمد القروي يالآلاي الأول مقتولا "ببئر بأحد سواني أريانه...مقطوع الرأس والذكر مع الأنثيين". ونجد أشكال أخرى من العنف مثل العيب بأحد قطع "الكروسة" للتسبب بحدوث للضحايا، حيث "...للمدعي كروسة ذهب بها صانعه لمنوبه، فأتاه محمد المذكور وفكّ له تربيعه العجلة، فلما ركب الناس بها وساق الكروسة انفلتت العجلة وانكسرت الكروسة". ومن أشكال العنف نجد التهديد باستخدام السلاح، فقد دخل سرق لأحد المنازل ووجد نساء أراد سرقتهن وهدهم بحديد وأخذ يروّعهن ويضرب الحديد على الأرض، وقد وجد "بوسط الدار أثر تحنيش من ضرب الحديد بالأرض". إذا التهديد يعتبر من أهم تجليات العنف المادي، وهذا ما تؤكد وثيقة أخرى: حيث جاء أحمد الشاذلي إلى دار المرأة فاطمة بنت بوبكر و"طلب منها أن تحضر له خدوجه بنت بوبكر وإن لم تحضرها له يقتل نفسه أو يقتل من كان بالدار، وصار يضرب في الباب بالسكين الذي بيده إلى أن ترك به آثار ثقب". ويُعدّ الضرب من الخلف من أهم تجليات العنف المادي الناجع والمؤثر، نجد رجلا وجد مقتولا بغابة المنهيلة "مضروبا بشاقور حديد على قفاه ثلاثة ضربات". والمفاجئة مهمة في العنف المادي، نجد رجل "خرج ويده مخفية مع جنبه وبها خدمي وهجم على المصاب وهو ببيته"، وفي وثيقة أخرى نجد رجلان مترافقان في السفر في قافلة كبيرة، فسبقتهم القافلة ف"هجم على رفيقه الذي كان جالسا وقبضه من برنسه باليد الواحدة وأخذ باليد الثانية ذبحه بموس كان معه"، لكن الضحية تعامل بسرعة مع الموقف "خرج من برنسه وتركه بيد القاتل وفرّ قاصدا القافلة". (الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9-32)

15.الدفاع عن النفس:

ومن ناحيتهم حرس الضبطية يستخدمون مجموعة من التقنيات لكي يحموا أنفسهم من العنف، حيث نجد حرس الضبطية يلاحق في سارق فلما وصل إليه "مسكه من قفاه"، ولما أراد السارق أن يضربه بموس "أخطأه الضرب لأنه ماسكه من قفاه"، ومن التقنيات الأخرى المساعدة على تجنب العنف المادي نجد "سل سيفه وضربني به، فرديت الضربات المذكورة ببرنوسي وهربت منهم"، والبرنوس هنا هو آلية الحماية. وفي وثيقة أخرى نجد رجلا أرادوا أن يضربوه بفأس "قدور رأسه على جهة ليمنع من الضربة، فأنته بذراعه الأيمن". ورجل ضرب "بجمع" فعرض "يده اليمنى للضربة، فجاءت الضربة على ربيب قصبه اليد المذكورة".

الخاتمة:

تبين لنا من خلال هذا المقال التنوع الكبير للأساليب العنيفة التي وقعت في مجتمع مدينة تونس خلال النصف الثاني من القرن 19. برز لنا أولا أهمية الوثائق الأمنية كمصدر مهم للمعلومات الأولية والصادرة من الفاعلين الاجتماعيين مباشرة. فهنا ثانيا طبيعة التوترات العديدة التي تشابكت مع الحياة اليومية في مدينة تونس قبل حدث مهم وهو انتصاب حماية الفرنسية بتونس (1881)، وهي ممارسة أيضا عنيفة باعتبارها احتلالا. نستنتج ثالثا أنّ الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عاشتها البلاد التونسية خلال القرن 19 أثرت على الحياة اليومية للسكان، حيث أصبح العنف الجسدي لغة أساسية وممارسة شائعة بين الناس. ونشير أخيرا إلى أهمية الشروع في العمل على مدونة كاملة للجسد في تاريخ البلاد التونسية، وقد حاولنا في هذا المقال المساهمة في جرد وتحديد طبيعة وأساليب وتقنيات العنف، وهذا مشروع قابل للتوسع والتطوير ومنفتح على النقد والتعديل.

واستنادا إلى هذا العمل نقدّم توصيات أساسية وأهمّها: دراسة تاريخ الجسد كممارس أساسي للعنف في فترات زمنية أخرى لم تتطرق لها هذا الدراسة مثل الفترة القديمة والوسيلة والفترة الاستعمارية، كما نوصي بأهمية اعتماد التقارير الأمنية كمصدر أساسي لكتابة التاريخ الاجتماعي وتاريخ الجسد.

المصادر والمراجع:

المصادر:

الأرشيف الوطني التونسي، دفتر 3493، 11 ربيع الثاني 1278
الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 120. الملف عدد 421-424
السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 219 مكرّر. الملف عدد 337 مكرّر. الملف الفرعي 3/2
السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 219 مكرّر. الملف عدد 337 مكرّر. الملف الفرعي 7/3
السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 248 مكرّر. الملف عدد 6.
فتر 3464، ربيع الأول 1277

المراجع باللغة العربية:

بوتر، روي "إعادة النظر في تاريخ الجسد"، ضمن: **نظرات جديدة على الكتابة التاريخية**، تحرير: بيتر بوركي، ترجمة وتقديم: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، مصر، 2010، الجزء الثاني، ص. 313-347

المراجع الأجنبية:

Becker, Peter « Kalifa (Dominique), « *Crime et Culture au XIX^e siècle* », *Crime, Histoire & Sociétés / Crime, History & Societies*, Vol. 16, n°1 | 2012, 123-125
Chaunu. Pierre « Violence, guerre et paix ». In: *Politique étrangère*, n°4 - 1996 - 61^eannée. pp. 887-898
Frédéric, Chauvaud (dir.), *Corps saccagés. Une histoire des violences corporelles du siècle des lumières à nos jours*, Presses universitaires de Rennes, (Collection « Histoire, 2009
Lawrence, Paul « « Images of Poverty and Crime ». *Police Memoirs in England and France at the end of the nineteenth Century* », *Crime, Histoire & Sociétés / Crime, History & Societies*, Vol. 4, n°1 | 2000, 63-82